الرسالات السماوية
بين
التطور والتجديد

obeikandl.com

obeikandl.com

الرسالات السماوية
بين
التطور والتجديد

خلق الله الإنسان ليكون خليفة له فى الأرض ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴿٣٠﴾ ﴾ [البقرة : 30] ، لذا ميزه الله على سائر الكائنات الحية بالعقل ، ليستعين به فى الانتفاع بما سخره الله له ، إذ أن الله سخر له ما فى السموات وما فى الأرض ، وكثيراً مما يسبح بينهما ، يقول الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [إبراهيم :32 – 33]، ويقول : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الحج : 65] ، ويقول : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الجاثية : 12 – 13]

و لكى تكون له الحرية فى التفكير والسلوك ، لم يجبره على سلوك طريقة معينة ، بل ترك له الخيار فى أن يسلك ما يشاء فى الانتفاع بما أعطاه الله ، وكان من الطبيعى أن يعجز هذا العقل عن الوصول إلى كنه الوجود ، وإلى معرفة ما يحدث له بعد الموت ، بل قد ثبت

obeikandi.com

عجزه عن التوصل إلى نظام ثابت للحياة يحفظه من الدمار ، ويساعده على بناء مجتمع سليم متماسك .

ومن هنا أرسل الله رسلاً ليبينوا له ما عجز عقله عن إدراكه ، وليوضحوا له ما خفى عليه من أحداث ما بعد الموت ، فكان لكل قوم رسولاً ، يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأعراف : 59] ، ويقول : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الأعراف : 80] ، ويقول : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الأعراف : 85] ، ويقول : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأعراف : 73] ، ويقول : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأعراف : 65] ، ويقول : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الزخرف : 26 -27 ، والشعراء : 183-184]

ويلاحظ فى هذه الآيات أن كل رسول كان يبعث إلى قومه ، **فهل كانت الرسالات واحدة ، باعتبار أنه من مصدر واحد ، وهو الله ؟ أم أنها كانت متعددة ، باعتبار تعدد الأقوام واختلاف درجة حضارهم ، وتنوع تقاليدهم وعاداتهم ؟**

يرى بعض الباحثين أن الجنس البشرى مر بمراحل فى تطوره ، ثم يعقد مقارنة بينه وبين تطور نمو الطفل ، فيقول : " إن الجنس البشرى بدأ كما يبدأ الطفل ، أقرب إلى البدائية والبساطة ، ثم نما الجنس البشرى ، ونمت أفكاره فوصل إلى ما يمكن أن يسمى مرحلة الصبا البشرية ، ثم نما مرة أخرى فوصل إلى مرحلة يمكن أن تعد مرحلة شباب البشر . ويستنتجون من هذه النظرية : أن الرسالات كانت مختلفة ، إذ أن كل رسالة كانت تناسب كل طور من الأطوار .

سيطر هذا الرأى على جمهور العلماء قديماً وحديثاً حتى أصبح من المسلمات التى لا تنقض ، وكثيراً ما يستشهد المحدثون على هذا الرأى بنص للإمام محمد عبده فى رسالة التوحيد ، يقول فيه : " إن الأديان خاطبت الحس ، يوم أن كانت الإنسانية فى دور الطفولة ، لا يعرف الإنسان فيها إلا ما يقع تحت حسه ، ولا يتناول بذهنه من المعانى ما لا يقرب من لمسه ، فلما سار ركب الإنسانية ، وجربت ، وكسبت ، و تحالفت ، واتفقت ، وتقلبت فى السعادة والشقاء أياماً وأياماً ، وبددت العواطف ، جاء دين يتحدث عن الزهادة ، وعن الصفاء وملكوت الله . ولكن الإنسانية فى صراعها لم تستطع أن تعيش على الإيثار ، ولم يطل مقامها فى الصفاء ، فراحت تتعارك ، وحلت القطيعة محل التراحم ، والتخاصم مكان المسالمة ، فجاء دين ينظم الشئون كلها ، ويرعى الحس والعاطفة ، ويدرس القلب والعقل ، وينظم للناس شئون دنياهم وآخرهم ، وهذا هو الإسلام .

ويرى أصحاب نظرية التطور فى الرسالات السماوية – طبقاً لما عليه الجنس البشرى من درجة التطور – أن كل مرحلة لها سمات خاصة تتفق مع درجة حضارة من أرسلت إليهم الرسالة ، وعليه فقد قسموا الرسالات السماوية إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : وهو ماكان فى مرحلة " الطفولة البشرية " ، وتبدو ملامحه فى :

- إن الدعوة كانت محددة بقوم الرسول ، فكل رسول كان يبعث إلى قومه فقط .
- إن ما تضمنته من مبادئ ، كان فى حدود ضيقة ، دون تنظيمات وتفريعات فى جوانب الحياة المختلفة ، اللهم إلا ماكان من مرض اجتماعى تفشى فى المجتمع ، حتى أصبح ظاهرة عامة ، فكانت الدعوة تنهى عنه وتحاربه .
- إنه لم يكن للدعوة فى تلك المرحلة كتب واضحة ، إنما هى بضع نصائح ، وقد توجد بعض ألواح و صحف عامة .
- أننا لم نعرف لأديان هذه المرحلة تواريخ ، إذ لم يحدد – مثلاً – العصر الذى أُرْسِل فيه نوح ، أو هود ، أو إبراهيم .....إلخ .

القسم الثانى : وهو ماكان فى مرحلة " صبا البشرية " ، وكانت ملامحه أكثر تعقيداً وشمولاً ، وتبدو مظاهره فيما يلى :

- دخلت الدعوة بعض التفاصيل والتشريعات ، ففى سفر التثنية : - " بخطيئة ، لا يقتل الآباء عن الأولاد ، ولا يقتل الأولاد عن الآباء ، كل إنسان يقتل......" [16 : 24]
- " إذا كانت خصومة بين أناس ، وتقدموا للقضاء ، ليقضى القضاة بينهم ، فليبروا البار ، وليحكموا على المذنب . " [25 : 1]
- " إذا سكن إخوة معاً ، ومات واحد منهم ، وليس له ابن ، فلا تصير امرأة الميت إلى خارج لرجل أجنبى ، أخو زوجها يتزوجها ، والبكر الذى يلده ، يقوم باسم أخيه الميت ، لئلا يمحى اسمه من إسرائيل ." [25 – 5 – 6]
- أصبح للدعوة كتاب ، هو التوراة أو الإنجيل ، ولكن معانيهما فقط هى الموحى بها ، وصاغها البشر فى عبارات ، وقد أصابها التحريف والضياع .
- وجدت فى هذه المرحلة تواريخ ، ولكنها غير دقيقة .

القسم الثالث : وهو ماكان فى مرحلة " شباب الجنس البشرى " ، فله ملامح خاصة ، وضحها هؤلاء العلماء فيما يلى :

- اتضحت وحدانية الله ، وحطمت الأصنام ، وفتح بالإسلام عهد جديد ، لا يقبل الشرك بأى صورة من صوره ، فالإسلام " فكرة تامة " لا تسمح لعارض من عوارض الشرك والمشابهة ، ولا تجعل لله مثلاً فى الحس ولا فى الضمير ، بل له المثل الأعلى ، وليس كمثله شيء .
- أصبحت الدعوة عامة لكل البشرية ، وأصبح محمد رسولاً للعالمين ، يقول تعالى :

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٨ ﴾ [سبأ : 28]

- تمت الرسالة بدعوة محمد ﷺ ، والدليل على ذلك واضح أيضاً ؛ فقد مرت القرون تلو القرون بعد محمد ، ولم يأت من يدعى الرسالة منذ طلع على العالم محمد بن عبد الله .
- ديانة الإسلام شاملة لأمور الدين والدنيا ، صورت لنا الله تعالى فى سمائه ، وصورت لنا جنته وناره ، وأبرزت معالم الخير والشر ، وراحت إلى أمور الدنيا تتحدى تفكير العالم بنظم رائعة فى الميراث ، والسياسة ، والاقتصاد ، والبيع والشراء ، والوصية ، والهبة ، والسلم ، والحرب ...و...و..وكل حاجات الإنسان .

• هذا هو مجمل رأى القائلين بنظرية التطور فى الرسالات السماوية ، وهى غير سليمة ؛ إذ أنها ظهرت فى الأوساط الفكرية، متأثرة بنظرية " داروين " التى لم تسلم من النقد والتجريح ، ولهذا لايجوز أن يسلم بها علماء المسلمين ، لأن رأيهم – بناءً عليها – فى تطور الرسالات السماوية :

- تتنافى مع الواقع .
- ويحمل فى طياته نسبة العجز إلى الله ﷻ .
- كما أنه يوحى بأن رسالة محمد ﷺ ليست خاتمة الرسالات .

أما أنه يتنافى مع الواقع ، فإن من ينظر إلى عملية التطور يرى أنها ذو شقين :

الأول : تطور فى أساليب الحياة المادية ، إذ انتقلت حياة الإنسان من بدائية ، لم يستعمل فيها إلا أدوات بسيطة ، كانت من الحجر فى بادئ الأمر ، ثم تطورت إلى مادة ثانية ، وثالثة ......إلخ . كما انتقل معظم الناس من سكن الكهوف والمغارات إلى البيوت البسيطة ، ثم إلى العمارات الشاهقة ، فناطحات السحاب بكل ما فيها من آلات تعمل بالطاقة ، على اختلاف مصادرها . كذلك تطورت وسائل المواصلات حتى بلغت السفن الفضائية .

فإذا كان هذا هو مقصدهم بالتطور ، فالإسلام لن يكون هو خاتم الرسالات ، لأن البشرية قطعت فى هذا السبيل منذ ظهور الإسلام حتى الآن أضعافاً مضاعفة ، لا يمكن مقارنتها بما قطعته بين موسى وعيسى عليهما السلام ، أو بينهما وبين محمد ﷺ ، الأمر الذى حتم — بناءً على رأيهم — أن تأتى رسالة محمد ﷺ ، لأن مرحلة موسى وعيسى كانت قد انتهت .

الشق الثانى من التطور : هو تطور عقل الإنسان ، ومن المشاهد أن التطور فى هذا الجانب ليس تطوراً بالمعنى الذى يقصدونه من التطور ، ذلك أنه لا فرق بين عقل إنسان يعيش فى القرن العشرين ، وآخر عاش فيما قبل الميلاد ، إلا فى زيادة كمية المعلومات التى حصل عليها ابن القرن العشرين نتيجة تراكم الخبرات والتجارب البشرية .[42]

[42]) يقول الدكتور زكى نجيب محمود عن العقل ونضجه : " العقل هو الجهاز الفطرى الذى جبل فى طبيعة الإنسان منذ كان إنساناً ، وهو جهاز لم يقل أحد إنه تغير أو تطور ، وقوامه طريقة إدراكية بين طرق أخرى عن طريقها يعرف الإنسان ما يعرفه عن نفسه وما حوله . والذى يميز النمط الفعلى من غيره ، هو الحركة الاستدلالية .....فالعقل لا يدرك ما يدركه بطريق مباشر ، كما تفعل العاطفة ، أو كما تفعل الغرائز ، بل طريقته أن يستدل نتيجة من مقدمة ، أو من شواهد تقدمها إليه الحواس . ومعنى ذلك هو أن العقل حركة انتقالية من طرف معلوم إلى طرف أصبح معلوما بعد أن كان مجهولاً ، ولهذه الحركة الانتقالية قوانينها التى هى جزء من فطرة الإنسان ، إذا أحسن استعمالها والتزامه أيقن أن النتيجة التى وصل إليها صحيحة ، مادام موقناً بصحة الشواهد أو المقدمات التى التى بدأ منها . وذلك هو معنى العقل من حيث هو جهاز إدراكى لا يتطور ولا ينمو ، اللهم إلا إذا أراد الله للإنسان أن يكون كائناً آخر غير الإنسان المعروف .... وهكذا نرى أن غزارة

obeikandl.com

أما التطور فى ذات العقل فلا دليل عليه ، بل هناك شواهد فى حياتنا المعاصرة تنفى هذا؛ إذ لو قارنا بين أخوين شقيقين ، أحدهما أخذ قسطاً كبيراً من الثقافة المحلية والعالمية حتى وصل إلى درجة مرموقة فى مجال الفكر العالمى ، والآخر ظل مقيماً فى بيئته ، لم يذهب إلى مدرسة ، ولم يتعلم إلا حرفة الآباء والأجداد . فالأول – على رأى من يقول بنظرية التطور – يمثل مرحلة " شباب الجنس البشرى " ، والثانى يمثل مرحلة " الصبا " ، وربما مرحلة "طفولة الجنس البشرى" ، وهذا لا يقبله عقل ، فالاثنان فى درجة واحدة من القوة الكامنة فى العقل ، وقد يكون الذى حُرِمَ من التعليم أكثر ذكاءً من الذى تعلم ، غاية الأمر أن الذى تعلم أتيحت له فرصة إظهار ما كمن فى عقله من قدرة على الفهم والإدراك ، وكان ذلك نتيجة ما حصله من معلومات .

فلو اعتبر القائلون بنظرية التطور هذه الظاهرة تطوراً ، للزم على هذا التسليم بأن درجة التطور فى القرن العشرين فاقت – بمراحل عديدة – درجة التطور فى القرن السابع الميلادى ، حين نزلت رسالة الإسلام على محمد ﷺ ، الأمر الذى يتطلب رسالة جديدة .

وعليه ، فليس هناك تطور فى العقل البشرى ، بل زيادة فى المعلومات ، ورسالة الإسلام جاءت لتخاطب العقل ، أيًا كانت درجة معلوماته عن الحياة ، وما فيها ، وما فى الكون ، وما يحتوى عليه من أسرار .

أضف إلى ذلك أن عملية التطور تسير فى الحياة الإنسانية فى خط متعرج ، فبينما تكون بعض المجتمعات قد قطعت شوطاً كبيراً على طريق التقدم ، يكون هناك بعض آخر لازال فى أول الطريق ، وثالث فى منتصفه ... وهكذا ، لأن عوامل التقدم والرقى ليست متاحة للجميع بنسب متساوية ، وهذا ما نشاهده اليوم فى المجتمع الدولى ، إذ اصطلح على تقسيمه إلى دول متقدمة ، وأخرى نامية ، بل إن درجة التقدم متفاوتة داخل المعسكر المتقدم ، وخطوات النمو مختلفة فى دائرة مجموعة الدول النامية .

الجانب المعرفى عند الإنسان من حيث كثرة الأفكار والخبرات كثرة عددية من جهة ، وارتفاعاً فى مستواها من جهة أخرى تمكن الجهاز العقلى من إدراك أوسع أفقاً وأبعد أعماقاً ...[جريدة الراية القَطَرية فى 1988/4/12م]

وما لنا نذهب بعيداً ، فنحن نرى داخل المجتمع الواحد - سواء كان فى جانب المتقدمين ، أو فى جانب المتخلفين حضارياً - تفاوتاً كبيراً بين الأفراد والأسر ، فبينما يكون التمدن والتحضر واضحاً لدى أسرة ما ، أو فرد فى أسرة ، يلاحظ بجوارها أسرة أخرى ، أو فرداً داخل الأسرة المتحضرة ، لازال فى أول طريق التحضر ، حسب المفهوم المصطلح عليه فى مجال تحديد معنى التحضر .

فإذا طبقنا نظرية التطور التى يقول بها بعض العلماء على واقع الجنس البشرى ، فإننا نجد جزءاً منها تطور حتى وصل إلى مرحلة " الشباب " وجزءاً آخر وصل إلى مرحلة " الصبا " ، بينما نرى جزءاً ثالثاً لازال فى مرحلة " الطفولة " ، فهو يعيش عيشة بدائية ، أو ما يقرب من البدائية .

وعليه ، فيختلف - بناءً على رأيهم - وضع كلٍّ بالنسبة للرسالة التى ينبغى عليهم الإيمان بها ، إذ يلتزم من لازال فى مرحلة " الطفولة " بالرسالة التى تخاطب الحس ، وهى فى نظرهم رسالة موسى . ويكلف من هم فى دور " الصبا " برسالة عيسى ، ولا يكلف برسالة محمد ﷺ إلا من بلغ مرحلة " الشباب " ، فيكون هذا أشبه بالفصول الدراسية فى المرحلة التعليمية ، حيث لا يقوى من التلاميذ على فهم مواد السنة الأعلى ، إلا إذا درس مواد السنوات التى قبلها ، وتهيأ ذهنياً لدراسة مواد السنة العليا .

وهذا تصور خاطئ ، إذ لو سلمنا معهم بهذا ، لقسم المجتمع الواحد إلى فئات ، بل لقسمت الأسرة الواحدة إلى مجموعات ، وهذا أمر يثير سخرية أقل الناس ثقافة وإدراكاً لمفهوم رسالة الإسلام ، لأن الرسالة التى نزلت على محمد ﷺ خاطبت جميع الناس على اختلاف مستوياتهم الثقافية ، وتفاوت درجاتهم الحضارية ، إذ يفهم الرجل العادى القرآن الكريم ، ويدرك ماهو مطلوب منه فى مجال العبادات والمعاملات ، كما يجد فيه أغزر الناس علماً ، وأوسعهم ثقافة فى مجال العلوم الفلسفية ما لم يجده فى دهاليز الفلسفة ، وأضابير الحكمة من معطيات علمية فى مجال الحياة وآفاق الكون ، فهو كتاب يجد فيه كل إنسان

مبتغاه ، ويحصل منه على متعته الذهنية والروحية ، مهما كانت درجة هذا الإنسان فى سلم الحضارة البشرية .

والقول بأن الرسالات السماوية خاطبت كل مرحلة على قدر طاقتها العقلية يحمل فى طياته نسبة العجز إلى الله ﷻ ، ذلك أننا فى عالمنا البشرى نصف الكاتب التى يتمتع بأسلوب تفهمه قطاعات عريضة من الناس ، مختلفة فى الثقافات ، ومتفاوتة فى الرقى الحضارى ، بأنه بارع فى كتابته ، لأنه استطاع أن يضع أفكاره فى أسلوب لا يعجز عن فهمه أنصاف المثقفين ، ولا يمل من قراءته العلماء المتخصصون . فإذا كان هذا شأن الإنسان المخلوق ، أفلا يستطيع الخالق أن يصوغ أوامره ونواهيه فى أسلوب يمكن أن يخاطب به كل الناس ، مهما اختلفت درجة حضارتهم .

بلى !!! لقد جاء القرآن الكريم بأسلوب يفهمه البدائى فى كهفه ومغارته ، كما يدرك أسراره العالم فى حلقاته العلمية ، ومدرجاته الدراسية ، فهو لجميع الناس : أحمرهم ، وأسودهم ، وأبيضهم ، سواء كانوا فى مجاهل الكرة الأرضية ، أو فى بروجها وناطحات سحابها .

يرى القائلون بنظرية التطور فى الأديان السماوية أنها تركزت فى منطقة الشرق الأوسط ، نتيجة التطور الإنسانى ، ويستدلون على ذلك بأن هذه المنطقة شهدت أرقى حضارات العالم منذ أقدم العصور ، وكانت حضارتها أدبية وعلمية ، فهيأت شعوبها لتلقى الرسالات .

ويشير هذا التحليل إلى أن الشعوب تسير فى خط مستقيم فى بناء حضارتها وتقدمها على طريق الرقى والارتقاء ، ولكن الواقع يؤكد خلاف ذلك ، فالمعروف أن هناك شعوباً تقدمت فى حضارتها فترة ، ثم انتكست فعادت إلى الوراء خطوات ، قد تصل إلى حد أن ينكر بعض الباحثين على الأجيال التى عاشت عصور الانتكاسة ادعاءهم بأنهم أحفاد من بنوا هذه الحضارة المسجلة فى آثارهم ومتاحفهم .

وهناك أكثر من دليل على ذلك ، إذ تكفى نظرة واحدة إلى واقع أحفاد الفراعنة ، والأشوريين ، والفينيقيين ، فحضارة هذه الشعوب لا ينكرها أحد ، لأن آثارها لازالت تنطق بأنها كانت على درجة كبيرة من التقدم والرقى ، لكن أحفادهم المعاصرين ، لا يملكون من وسائل الرقى والتقدم ما يجعلهم فى مستوى أجدادهم فى الحضارة ، ولا حتى فى مستوى يقرب منهم .

أفلا يدل ذلك على أن ربط تطور الأديان السماوية بمسألة التقدم والرقى فى المجتمعات الإنسانية أمر لا يستقيم فهمه ، لأنه يترتب عليه أن تتذبذب درجة الرسالات السماوية ، صعوداً وهبوطاً ، مع صعود ونزول درجة الحضارة فى الشعوب !!!!

واستدلال أصحاب نظرية التطور على صحة رأيهم بأن الدعوة فى عصر " طفولة " الجنس البشرى كانت محدودة ، ليس فيها تفاصيل ، وأنه لم يكتب لها كتب ، بل اقتصرت على بعض النصائح ، ولم يعرف لها تاريخ محدد ، وأنها كانت خاصة بقوم دون آخرين ، استدلال غير صحيح ، لأن ما نزل على محمد ﷺ هو الذى نزل على نوح عليه السلام – وهو من رسل عصر " الطفولة البشرية " ، كما يقول هؤلاء العلماء – ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ ﴾ [النساء : 163] ، ويقول : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى : 13]

obeikandi.com

وهذا كلام فيه مغالطة ؛ ذلك أن الإسلام الذى جاء — على حسب قولهم — بعد أن اكتمل عقل البشرية ، فوصل إلى أعلى درجات التطور ، ليس فيه تحديد زمن معين لأى حادثة وردت فيه ، لأن الوحى السماوى لا يرتبط بزمن معين ، ولا بعصر معين ، وإنما جاء لهداية الناس ، وتقويم سلوكهم ، ولا علاقة لهذه الهداية بالتاريخ ، فلا تحتاج إلى تسجيل الزمن ، لأنه ليس جزءاً من العملية التربوية الإلهية ، فهو الإنسان فى أى زمن ، وفى أى مكان ، وعلى أى درجة من درجات التقدم والحضارة . فالقول بأن عدم تحديد زمن الرسالة السماوية السابقة دليل على تخلف المجتمعات التى نزلت فيها ، لا يصلح دليلاً على تطور الرسالات السماوية ، لأنه لا حاجة للإنسان فى مجال الدعوة إلى الله إلى تحديد سلسلة الرسالات زمنياً ، بمعنى لسنا بحاجة إلى أن يحدد لنا ، إن كان هود قبل إبراهيم أم بعده ، أم كانت رسالة نوح فى عهد زيد من الملوك أم عمرو ، لأن هذه الأمور لا تؤثر على عملية انتشار الدعوة إلى الله ، بل قد تكون من العوامل المعوقة لها ، لأن الآراء كثيرة ومتشعبة فى تحديد الزمن التاريخى للحوادث البشرية . فلو حدد القرآن الكريم زمن الرسالات السماوية لتعرضت معطياته التاريخية لنقاش لا طائل من ورائه ، وخلافات لا تؤدى فى مجال الدعوة إلى فائدة ، ولهذا أهملها القرآن الكريم تجنباً للخلاف ، ولأنه لا فائدة من ذكرها فى عملية الإقناع بدعوة الإسلام .

وآخر دليل ذكره القائلون بنظرية تطور الرسالات السماوية فى تحديد معالم رسالة عصر " طفولة الجنس البشرى " ، هو أن الدعوة فى تلك العصور — وكذلك فى عصور — صبا الجنس البشرى — كانت محدودة بقوم الرسول ، فلم تتعداهم إلى غيرهم . وهذا أمر يحتاج إلى وقفة ؛ ذلك أن هذا التحديد لم يكن مبعثه تطور الإنسان ، وإنما اقتضته ظروف حياة الجنس البشرى ، فالمواصلات كانت بدائية ، و بالتالى كانت الاتصال بين أقطار الأرض صعبة ، ولهذا بُعِث كل نبى لقومه ، لأنه لا يستطيع أن يبلغ الرسالة لأقطار الأرض المختلفة، نظراً لصعوبة التنقل ، والدليل على ذلك أن الله أمر موسى وأخاه هارون أن يذهبا إلى

فرعون ويبلغاه وحى الله ، يقول تعالى : ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه : 43 – 44] ، فكانت دعوة موسى لفرعون بعبادة الله دليل على أنه لم يبعث لقومه فقط ، لأن فرعون لم يكن من قومه ، كذلك آمن السحرة بما جاء به موسى ، مع أنهم لم يكونوا من قومه ، يقول الله تعالى : ﴿ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الشعراء : 46 – 48]

كما كان يوسف ﷺ يعلم من كان معه فى السجن شرع الله ، وهم لم يكونوا من قومه ، يقول تعالى حكاية عما كان يقوم به يوسف داخل السجن من الدعوة إلى الله : ﴿ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يوسف : 39 – 40]

فدعوة موسى لفرعون ، ومحاولة يوسف هداية من معه فى السجن دليل على أن دين الله للناس جميعاً ، فما كان حصر دعوة الرسل السابقين على أقوامهم إلا لظروف الاتصالات ، التى كانت تحول بين النبى وبين دعوة غير قومه ، ولهذا عندما كانت ترفع هذه الحواجز ، كان الرسول يدعو غير قومه .

وعليه فالإسلام لكل الناس ، لأن سهولة المواصلات جعلت فى الإمكان دعوة القاصى و الدانى إلى الدخول فيه .

ويدعى القائلون بنظرية التطور فى الأديان السماوية ، أن معالم المرحلة الثانية ، وهى ما أطلقوا عليها : مرحلة " صبا البشرية " ، تبدو فى ظهور بعض التفصيلات والتفريعات فى التشريع . واستدلوا على ذلك بما ورد فى الكتاب المقدس من مسائل تحدد أحكام بعض ما يرتكبه الإنسان من أخطاء ، وتبين طريقة التقاضى عند التخاصم ، وغير ذلك من التفاصيل التى وردت فى الكتاب المقدس فى كثير من مجالات النشاط الإنسانى .

ويفهم من هذا أن مثل هذه التفاصيل والتفريعات لم تكن موجودة فى الرسالات التى سبقت رسالة موسى عليه السلام ، وهو ادعاء لا يستند إلى دليل ، ذلك أن الباحث ، عندما يتوصل إلى حكم فيه تمييز بين طرفين ، فلابد أن تكون عناصر الطرفين موجودة أمامه ، بحيث تكون واضحة المعالم وضوحاً يبرز الجزئيات التى ترتكز عليها المقارنة فى الوصول إلى النتيجة . فإذا تصورنا هذا المبدأ الأساسى فى عملية البحث فى موضوعنا ، فإن المنطق يقتضى أن يكون تحت أيدينا نماذج صحيحة للتشريعات ، التى نزلت على الرسل قبل موسى عليه السلام ، ويثبت لدينا بالدليل القاطع أنها وحى الله ، بمعنى أنه لم يدخله تحريف ، ولا تغيير ، ولا تبديل .

فهل تحت أيدينا نصوص التشريعات السماوية التى سبقت تشريع موسى عليه السلام ؟ وهل يمكن لأى باحث أن يصل بأى طريقة – غير ما ورد فى القرآن الكريم – إلى تصور معالم الحركات الفكرية لتلك العصور ، بحيث يسلم العقل البشرى – طبقاً للقواعد المتعارف عليها فى مجال البحث العلمى – أنها من المعالم الأصلية للتشريع فى تلك الحقب ، ويتأكد أنه لم يصل إليها أيدى المولعين بتغيير آثار السابقين ، وتبديدها ؟

لا يوجد أحد على وجه الأرض يستطيع أن يجيب بـ " نعم " ، لأنه ليس من الممكن عقلاً ، ولا واقعاً ، أن يعثر الإنسان على نصوص الوحى الذى نزل على الأنبياء ، الذين أرسلوا فى عصر ما يطلق عليه أصحاب نظرية التطور فى الأديان السماوية : عصر " طفولة الجنس البشرى " .

وعلية ، فأحد عنصرى المقارنة مفقود ، **فكيف يقال : إن المرحلة الثانية من مراحل الأديان السماوية – حسب رأيهم – تتميز بظهور بعض التفصيلات والتفريعات فى التشريع ؟**

ومن أدراك أن التشريع فيما تسمونه المرحلة الأولى كان مجملاً ؟

وعلى أى شيء اعتمدتم فى ذلك ، ولم يوجد مرجع يمكن الرجوع إليه على الإطلاق ؟

لا يوجد مرجع يمكن أن تُستَقَى منه معلومات صحيحة عن الدين فى تلك الفترة سوى القرآن الكريم ، **فماذا قال عنها ؟**

لم يتحدث القرآن الكريم عن أديان تلك الفترة بالتفصيل ، لأنه ليس كتاباً تُسَجَّل فيه حوادث السابقين ، وما جاء فيه عن أخبارهم ، إنما سيق للعظة والعبرة حسب ما تقتضيه ظروف الحدث الذى أراد الله ﷻ أن يُذَكِّر الناس به ، حتى لا يضلوا كما ضل من سبقهم ، وجاء ذكر الاستشهاد فيه بأخبار السابقين على موسى عليه السلام فيما يتعلق بمسألة بالعقيدة دون غيرها ، لأن ذلك نزل فى مكة ، حيث كان نشاط الدعوة مركزاً على إقناع الناس بوحدانية الله ، دون غيرها من التشريعات التى نزلت فيما بعد الهجرة إلى المدينة ، فعدم ذكر تشريعات هؤلاء الرسل كان لسببين :

الأول : أن المقام كان يقتضى الاستشهاد بما يساعد على الاقتناع بوحدانية الله ، ولا ينفع فى هذا المقام ، إلا ما يتعلق بالعقيدة دون التشريع .

الثانى : أن التشريع لا يحتاج إلى سرد ما يدعمه من تشريعات السابقين ، لأنه يأتى فى مرحلة تلى مرحلة الاقتناع ، ومادام الإنسان قد اقتنع بالأساس الذى يقوم عليه الدين ، فمن الضرورى أن يتقبل كل ما يشرعه له من اقتنع بربوبيته ، وهو الله ﷻ

وهذه قاعدة توجد فى جميع المجتمعات البشرية ، على اختلاف العصور والأقطار ، التزم بها القرآن الكريم ، لأنه للناس جميعاً .

ويدعى أصحاب نظرية التطور فى الأديان السماوية ، أن المرحلة الثانية ، وهى ما أطلقوا عليها مرحلة : " صبا البشرية " ، تتميز عن سابقتها بنزول كتب على رسلها ، مثل : التوراة والإنجيل ، زاعمين أن معانيهما فقط هى الموحى بها ، تلك المعانى التى صاغها البشر فى تراكيب وعبارات لغوية .

وهذا الزعم ينطوى على عدة أخطاء :

أولاها : الجزم بأن الكتب المقدسة لم تظهر إلا فى هذه المرحلة ، أما ما سبقها ، فلم يخرج الوحى فيها عن كونه بضعة نصائح متناثرة ، لم يجمعها كتاب ، أو دُوِّنت فى بعض الأحوال فى ألواح وصحف عامة ، وهذه دعوى تحتاج إلى دليل ، ولا يوجد من بين المصادر التى يعتمد عليها الباحثون فى هذا المجال ما ينفى وجود كتب سماوية فى المرحلة السابقة . كما لم ينص القرآن الكريم على عدم وجود مثل هذه الكتب ، أو على عدم إنزال كتب على الرسل ، الذين اصطفاهم الله فى هذه المرحلة ، فالاعتماد على أن القرآن الكريم لم يصرح بوجود كتب لهؤلاء الرسل كدليل للجزم بعدم وجودها غير مسلم علمياً ، إذ يجوز عدم الإشارة إلى ذلك فى القرآن الكريم راجعاً :

- إلى أن مقام سرد الأحداث لا يتطلب ذلك .
- إدراك أن تناثرها جعل الحديث عنها لا فائدة فيه فى مجال محاورة الرسل لأقوامهم فى مجال إقناعهم بوحدانية الله .

ثانيها : الادعاء بأن ما أُنزِل من التوراة والإنجيل هو بمعناهما فقط ، وتولى الأتباع صياغة هذه المعانى ادعاء خطير ، ذلك أنه قد يترتب عليه عدم صحة تحريفها ، لأن التحريف لا يتصور إلا لوحى مصاغ بأسلوب إلهى . أما تغيير ما يصيغه البشر فلا يسمى تحريفاً بالمعنى المفهوم الذى أشار إليه القرآن الكريم فى أكثر من آية ،

منها قوله تعالى : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [البقرة : 75] ، فالتعبير بـ " كلام الله " يدل على أن ما حرفوه كان كلاماً مصاغاً فى أسلوب لغوى وليس معنى ، إذ لو كان التحريف واقعاً على المعنى ، لما عبر بـ " كلام الله " ، بل بأحكام الله ، لأن الذى يغير فى هذه الحالة لا يغير كلاماً ، وإنما يغير مفهوماً أراده الله ﷻ

ثالثها : من المعروف أن كلاً من التوراة والإنجيل قد كتبا بعد نزول الوحى على كلٍّ من موسى وعيسى عليهما السلام بزمن معين ، **فهل تناقل الناس معانى الوحى من وقت نزوله حتى كتابته بمعناه ، أى بدون أسلوب يدل على ما فيه من أحكام ؟ وكيف بلغه الرسل ؟ بألفاظ أم بغير ألفاظ ؟** إن كان بألفاظ فقد أصبحت مقدسة ، لا يجوز تحريفها ، وإن كان بغير ألفاظ فهو مستحيل ، لأن المعانى والأفكار لا تخرج من دائرة القوى الفكرية إلا فى ثوب ألفاظ ، بل إن تصورها فى الذهن مرتبط بالألفاظ التى تدل عليها . فالقول بأن الوحى نزل بالمعنى ، وصاغه البشر كلاماً لا يُقْبَل ، فلو قيل : إنه بالمعنى وعبر عنه النبى الموحى إليه بلفظه ، لكان ذلك إلهاماً ، ولم يقل أحد : إن الشرائع نزلت كلها على الرسل بطريق الإلهام .

و لكن كيف نفسر ظاهرة عدم وجود كتب مقدسة قبل موسى عليه السلام ؟

إنها ظاهرة طبيعية ، ذلك أنه ليس لدينا أثر يبين لنا صورة واضحة لحياة الإنسان قبل ستة آلاف سنة ، وما وُجِد من آثار تكشف لنا عن بعض جوانب الحياة الإنسانية فيما قبل زمن تدوين نص التوراة الموجودة بين أيدينا ، فليس فيه كتاب بالمعنى المفهوم لنا من هذه الكلمة ، وإنما هى بعض نقوش تعبر عن صورة غير متكاملة لبعض أنشطة الحياة المختلفة ، حتى

الجانب الدينى ، فإننا نجد أن ما يعبر عنه ، هو أقوال متفرقة هنا وهناك ، وجدت منقوشة على جدران ما تركوه من آثار ، وما خلفوه من أوانٍ أُعِدَّت للاستعمال . فعدم وجود كتب الرسل السابقين نتيجة لهذه الظاهرة العامة ، وترك القرآن الكريم الحديث عنها ، أمر طبيعى ، لأنه لم يتحدث عن السابقين إلا لضرب الأمثلة فى معرض الحوار والمناقشة حول وحدانية الله ، ولا يتطلب هذا المقام حديثاً عن كتب لا وجود لها ، ولا يعرف المجادلون عنها شيئاً .

إن من الخطأ العلمى أن يعتمد القائلون بنظرية التطور فى الأديان السماوية على التوراة الموجودة بين أيدينا فى الاستدلال على صحة رأيهم ، ذلك أن هذا النص لا يمثل الوحى الذى نزل على موسى عليه السلام حتى يمكن القول – كما يدعون – بأن من مظاهر هذه المرحلة – وهى ما يسمونها مرحلة : " صبا البشرية – أنها ذكرت تواريخ ، ولكنها غير دقيقة ، لأن هذا القول ينسب إلى الوحى عدم الدقة ، فهم يتحدثون عن تطور الأديان السماوية التى نزل بها الوحى من السماء ، فى حين أن ما بين أيدينا لا يعبر عن الوحى ، وإنما هو حصيلة الثقافة الدينية لشعب اليهود ، صاغها كتاب العهد القديم بأسلوبهم . ومما لاشك فيه أن فكرهم لا يعبر تعبيراً دقيقاً عن مضمون الوحى ، الذى نزل على موسى عليه السلام ، بل اختلط به كثير من الثقافات الأخرى ، التى احتك بها الشعب اليهودى فى مسيرته التاريخية .

ويضاف إلى ذلك أنه لم يكن هناك نص واحد فى بداية مرحلة تدوين الثقافة الدينية للشعب اليهودى ، بل وُجِدَ العديد من النصوص ، ففى القرن الثالث قبل الميلاد تقريباً ، كان هناك على الأقل ثلاث مدونات للنص العبرى للتوراة ، ثم ظهر اتجاه فى القرن الأول قبل الميلاد إلى تدوين نص واحد ، ولكن تدوين الكتاب المقدس لم يتم إلا فى القرن الأول بعد الميلاد ، وهو ليس بين أيدينا اليوم ، إذ أن أقدم نص عبرى للتوراة يرجع عهده إلى القرن التاسع بعد الميلاد .

فإذا كان هذا هو وضع الكتاب المقدس ، فكيف يعتمد عليه فى الاستدلال على نظرية التطور فى الأديان السماوية ؟

إن نظرية التطور تنسب إلى الوحى أشياء ليس من طبيعته التحدث عنها ، ألا وهى تحديد الزمن ، ذلك أن الرسالات السماوية جاءت لهداية الإنسان وعلاجه من الأمراض الاجتماعية ، حتى تقوم المجتمعات الإنسانية على أسس سليمة تحفظها من التفكك والانهيار ، ولما كانت خصائص الإنسان العامة ، واحتياجاته الأصلية لا تختلف من زمن لآخر ، ولا تتفاوت بتفاوت الأقطار والأمصار ، كان دين الله واحداً ، من بدء خلق الإنسان حتى عصرنا الحالى ، وإلى أن تقوم الساعة ، ولذا فلا مجال لذكر التاريخ فى مرحلة ، وعدم ذكره فى أخرى ، كما يدعى القائلون بنظرية التطور فى الأديان السماوية ، لأن الإنسان واحد فى كل مراحل التاريخ ، وما يعتريه من ضلال فى العقيدة ، وأمراض فى السلوك ، على اختلاف الأجيال والعصور تكاد تكون متطابقة : كفر بالله ، وعبادة الأصنام ، واستغلال القوى الضعيف ، وإشاعة الفاحشة فى المجتمع ، وتسلط المادية على حياة الناس ..... و ... ...و.....إلخ .

ولهذا فحين قص القرآن الكريم على محمد ﷺ أخبار السابقين ، لم يحدد زمن وجودهم ، ولم يذكر تاريخ الأحداث التى قصها ، لأنه ليس من العناصر الرئيسية المستهدفة من سرد هذه الأحداث ، ولأن طبيعة الحدث عامة ، فممن الممكن أن يحدث فى أى زمن ، وفى أى مكان ، فتحديدها بزمن معين يفقدها صفة العمومية ، ويحصرها فى دائرة محلية ، وهذا يتنافى مع عموم الرسالة .

فما جاء فى الكتاب المقدس من تحديد زمن بعض الأحداث لا يعبر عن وحى ، وإنما هو رأى الكاتب ، ومادام الكاتب بشراً ، فهو لا محالة سوف يخطئ فى تحديد التاريخ ، خاصة أن وسائل البحث فى مجال التاريخ لم تكن قد تقدمت فى ذلك العصر .

وعليه فخطأ المعطيات التاريخية فى الكتاب المقدس لا يدل إلا على ضعف الإنسان فى مجال التصورات التاريخية فى ذلك العصر ، فلا يصلح على الإطلاق أن يتخذ دليلاً على التطور فى الأديان السماوية ، لأن تحديد التاريخ ليس جزءاً من عملية هداية الإنسان إلى طريق الحق ، وعلاجه من الأمراض الاجتماعية .

ولهذا كان وحى الله عاماً لكل الناس ، لم يحدد بزمن دون آخر ، ولم يخصص لشعب معين ، أو يقصر على إقليم دون غيره من أقاليم الأرض ، يقول تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سبأ : 28]

ويرى أصحاب نظرية التطور فى الأديان السماوية أن المرحلة الثالثة ــ وهى ما أطلقوا عليها مرحلة : " شباب الجنس البشرى " — تتميز بوضوح وحدانية الله ، وتحطيم الأصنام .

وهذا قول ينطوى على اتهام للرسل السابقين بأنهم لم يوضحوا قضية الوحدانية ، ولم يحطموا الأصنام ، وفى ذلك أيضاً إنكار — أو إغفال — لما جاء فى القرآن الكريم ، فقد جاء فيه الحديث عن جهود الأنبياء السابقين فى بيان وحدانية الله بصورة واضحة ، ليس فيها غموض ولا تورية ، فلو استعرضنا ما قاله الرسل السابقون لأقوامهم ، لظهر لنا وضوح دعوتهم إلى وحدانية الله ، وترك عبادة الأصنام ، فنوح قال لقومه : ﴿ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الشعراء : 205] ، وقال هود : ﴿ ..... يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأعراف : 65] ، وكذلك قال صالح .

كما حطم إبراهيم الأصنام بيده ، يقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ

﴿ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأنبياء : 51 – 58]

ألا يدل هذا على وضوح الدعوة إلى وحدانية الله ، ونبذ عبادة الأصنام ؟ ثم ألا يعد ما فعله إبراهيم ﷺ تحطيماً للأصنام دليلاً على وحدانية الخالق ﷻ ؟

فالقول بأن ما يميز المرحلة الثالثة – طبقاً لما يرونه من تقسيم تاريخ الأديان السماوية إلى مراحل – هو وضوح وحدانية الله ، وتحطيم الأصنام ، لا يستند إلى دليل ، بل إن آيات القرآن الكريم تثبت خلافه ، ألا وهو أن هذه كانت السمات العامة لكل الأديان ، من آدم ﷺ إلى محمد ﷺ : وضوح الدعوة إلى وحدانية الله ، ومحاربة كل صور الشرك وعبادة الأوثان والأصنام ، يقول تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى :13] ، ويقول : ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ ﴿٤٣﴾ ﴾ [فصلت : 43]

ويبدو أن السبب فى وقوع العلماء فى هذا الخطأ ، هو أنهم قارنوا بين القرآن الكريم فى وضوح الوحدانية فيه ، وحربه على عبادة الأوثان ، وبين ما فى نص الكتاب المقدس الموجود بين أيدينا من خلط فى مفهوم تصور وحدانية الله ، ومهادنة لبعض صور الشرك ، أو قبول ما توحى به ، وهذه المقارنة قائمة على أساس غير سليم ، إذ لا تجوز المقارنة بين وحى الله ،

وما كتبه البشر ، الذى خلط فيه بين ما هو صالح ، وآخر سيء يتنافى مع ما نزل على الرسل السابقين .

ولهذا ينبغى علينا طرح فكرة تطور الأديان السماوية بعيداً ، وعدم قبول أى صورة من صورها ، فدين الله واحد ، ورسالة الأنبياء واحدة ، وخصائص دعوتهم متطابقة :

- ففى دائرة الألوهية ، دعوا جميعاً إلى عبادة الله وحده ، وترك عبادة الأوثان والأصنام .
- وفى دائرة الرسل ، اعترفوا جميعاً بأنهم بشر ، وأن وظيفتهم لم تتعد البلاغ للناس .
- كما بينوا للناس أن الله هو المسيطر على كل ما فى الوجود ، فهو واهب الحياة الدنيا .
- كما وضح من سيرتهم أن موقف الأعداء منهم كان واحداً ، فقد كانوا مصرّين على عبادة آلهتهم من دون الله ، وأنكروا البعث ، واستخفوا بوعد الله ووعيده .

هذه هى الملامح الرئيسية لكل الرسالات السابقة كما ذكرها القرآن الكريم ، فليس فيها ما يشير إلى تطور ، أو اختلاف واحدة عن الأخرى ، لأن الكل من عند الله وهو واحد ، كما أنهم أرسلوا جميعاً للإنسان باعتباره بشراً ، ، فجميع الأجناس تشترك فى الخصائص البشرية ، ولذا يجب عليهم الإيمان برسالة الإسلام ، لأنها لهم جميعاً ، من حيث هم بشر ، جاءتهم من الله ، وهو خالق الناس جميعاً ، يقول تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ ﴾ [النساء : 170]

وأخيراً يجرى على ألسنة المسلمين أن الأديان الثلاثة : " اليهودية ، والنصرانية ، والإسلام " أديان سماوية ، ويتدارس طلاب العلم فى مدرجاتهم الدراسية القضايا الدينية على

أساس صحة هذه القضية ، بل يتناول الباحثون والمتخصصون فى المجال الدينى المسائل المشتركة بين الأديان الثلاثة ، بحثاً ، ودراسة ، واستنتاجاً ، من منطلق الاعتقاد بأن الله أنزل اليهودية على موسى ، وأنزل النصرانية على عيسى عليهما السلام .

شاع هذه الرأى بين المسلمين ، واعتنقه جمهرة العلماء ، على الرغم من أن كثيراً من آيات القرآن الكريم تؤكد أن الإسلام فقط هو الدين السماوى ، يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴿١٩﴾ ﴾ [آل عمران : 19] ، أى أن الدين المترل من السماء هو الإسلام لا غيره .

ويقول : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [آل عمران : 67] ، أى أنه لم يكن معتنقاً دين اليهودية ، ولا مؤمناً بدين النصرانية ، ولكن كان على دين الإسلام .

ويحكى القرآن الكريم دعاء يوسف ربه ، فيقول : ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يوسف : 101]

وقد وردت آيات كثيرة على لسان رسل وصالحين ، عاشوا قبل محمد ﷺ يدعون فيها ربهم أن ينعم عليهم بالإسلام ، وأن يوفقهم إلى أن يموتوا مسلمين ، ولم ترد آية واحدة تذكر أن أحداً من السابقين على الإسلام سأل ربه أن ينعم عليه باعتناق اليهودية أو النصرانية ، ذلك أن الله لم يترل ديناً سماه بهذا الاسم ، فلم يذكر فى كتابه الكريم أنه أنزل اليهودية على موسى ، أو أنزل النصرانية على عيسى عليهما السلام ، لأن اليهودية نسبة إلى يهوذا ، والنصرانية نسبة إلى قرية الناصرة التى انتسب إليها أتباع عيسى عليه السلام .

إذاً ، فلا علاقة للتسمية بما أنزله الله على هذين النبيين ، فما أُنزِل على موسى هو الإسلام ، وما أُنزِل على عيسى هو الإسلام . أما ما أُطلِق عليه اسم : " اليهودية " فهو عبارة عن تسمية لما عند اليهود من المبادئ والتشريعات الدينية ، التي جمعوها من تراثهم ، أى أنه وحى اختلط بما أخذوه من روافد ثقافية أخرى . و لاشك أن هذا الجديد يحمل من المعالم ما جعله يختلف كلية عما نزل على موسى ﷺ ، وهو الذى سمى بـ " اليهودية " .

فاليهودية هى من صنع اليهود ، وكذلك النصرانية ، أما ما نزل على موسى فهو الإسلام ، وهو نفسه الذى نزل على عيسى ، لأن الله يقول : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴿١٩﴾ ﴾ ، أى أن الدين الذى نزل من عند الله هو الإسلام ، سواء نزل على موسى ، أو على عيسى عليهما السلام ، أو على غيرهما من الأنبياء السابقين ، ولكن عندما اختلط بالثقافات البشرية ، وضاعت معالم الإسلام ، أخذ اسماً آخر مقتبساً من الملابسات التى مرت بالأتباع ، سواء تعلقت بشخص ، أو بمكان .

والدليل على أن دين الله الذى نزل على الأنبياء جميعاً ، هو الإسلام ، أن كلمة " دين " لم تأت فى القرآن الكريم بصيغة الجمع " أديان " على الإطلاق ، لأن دين الله واحد ، وإن تعددت رسالاته ورسله ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ [فصلت : 41 – 43]

ولم يأت تعدد الرسالات إلا لتصحيح ما حُرِّف ، لأن المجتمعات البشرية دأبت على تغيير الرسالات بعد رسلها ، فكلما طال الزمن بعد الرسل ، تمادى الناس فى غيهم وضلالهم ، فحرفوا وبدلوا ، فإذا ضاعت معالم الرسالة ، أرسل الله رسولاً آخر ليبلغهم

الرسالة من جديد ، حتى جاء خاتم الرسل محمد ﷺ ، فحفظت رسالته من التحريف والتبديل ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾[الحجر : 9] ، لأن الله كتب فى الأزل أنه سيكون خاتم الرسل ، فحفظ القرآن الكريم مما أصاب ما نزل على الرسل السابقين ، ولذا لم يعد الأمر فى حاجة إلى إرسال رسول آخر .

وجملة القول أن دين الله واحد ، هو الإسلام ، وهو ما أنزله الله على جميع الأنبياء ، والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴿١٩﴾ ﴾ ، أما ما يعرف باليهودية والنصرانية فهى تسمية لما فى أيدى اليهود . وكذلك ما فى أيدى النصارى من مبادئ وتشريعات دينية لا صلة لها بالإسلام إلا باعتبارها منسوبة فى أصلها إلى من أُنزِل عليه الإسلام من قبل ، وهما موسى وعيسى عليهما السلام ، أو باعتبار أن فيهما بعضاً مما أنزله الله عليهما ، وإن كان هذا البعض قد اختلط بما أضافه أتباعهما إلى وحى الله . ولهذا أطلق القرآن الكريم عليهم " أهل الكتاب " ، نسبة إلى الكتاب الذى فى أيديهم ، باعتبار أن فيه شيئاً منسوباً إلى نبى من أنبياء الله ، ولم يطلق عليهم اسم يدل على أنهم أتباع دين نزل من الله على هذين النبيين ، لأن ما يتسمون به ، وهو " اليهودية " أو " النصرانية " ليس ديناً من عند الله ، وإنما هو علم على مجموع الثقافات الدينية التى اتخذوها ديناً لهم .